(٧)

التصوّف الذي نريده

العدد (٢٨) ربيع الثاني (١٣٨٧هـ) يوليو (١٩٦٧م)

مع قيام الإسلام على العقل، وترحابه بالفكر الجيد والبحث الأصيل، وحضه على الارتباط المادي والمعنوي بالكون عملًا وتأملًا، مع ذلك كله فهو دين يعقد أوثق العلاقات بالقلب اليقظان والمشاعر الجياشة، ويجعل الإيمان عاطفة دافقة بالحب والبر إلى جانب أنه نظر يتسم بالسداد والصواب..

والإسلام المكتمل ليس «نظرية» علمية، أو اقتصادية، وليس فكرة مجردة عن الله مهما كانت هذه الفكرة صحيحة من حيث التصور والاستدلال.

إنه قلب انفتحت أقفاله، وانفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره في كونه، عاشق للخير، مبغض للشر، يمتد مع كل شيء حسن، وينكمش مع كل شيء قبيح.

وقد خاطب الله المؤمنين من أصحاب محمد ﷺ فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ...﴾ (**الحجرات**: ٧، ٨) ومن المتعذر الفصل بين الاستنارة الفكرية والهداية النفسية... نعم يوجد ناس لهم عقول ذكية وسير هابطة، ولا نشك في أن هؤلاء مرضى، والأدواء التي أصيبوا بها متفاوتة الشناعة والسوء، والمفروض أن من يعرف خصائص النار يتحاشى ملامستها، غير أننا نلحظ أن بعض الناس قد يعرف شيئًا ما معرفة حسنة، ثم يجيء تصرفه وكأنه جاهل كل الجهل، وهذا التناقض ضرب من الجنون الذي يرى في كل مكان، ولا يودع أصحابه مستشفيات المجانين!

إن الأمراض التي تعتري الشخصية الإنسانية كثيرة جدًا، وهذا الجنون الجزئي هو ما أشار إليه القرآن الكريم في تقريعه للأشرار من العلماء: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (**البقرة: ٤٤**).. نعم فالمفروض أن صحة التفكير تستتبع صحة التصرف!

لكن هذه البديهية عندما تنتقل إلى عالم التطبيق يعترضها من العوائق، ما يعترض التيار الكهربائي عندما ينقطع السلك الحامل له، أو عندما توجد مواد عازلة تمنعه من الانطلاق إلى مداه.

والدين الحق شفاء من هذه العلل جمعاء، فهو عقل مستقيم وضمير حي.

أما الثروة الطائلة من النظريات والفقر المدقع في المشاعر النبيلة والاتجاهات الكريمة فليس تدينًا مقبولًا.

والسؤال الذي نريد الإجابة عليه: كيف نحقق هذا التدين؟

وكيف نربي في القلوب الإحساس بجلال الله والخشوع لعظمته؟

كيف نجعل اليقين ينزل من السطح ليشتبك بالأعماق؟

كيف نحول معرفة الله إلى مذاق حلو يطبع النفوس على الرقة، ويصفي السرائر من كدرها؟

كيف نجعل المرء مشتاقًا إلى ربه، فهو ببواعث من أشواقه يطيعه ويسارع إلى مرضاته؟

وكيف نجعله هيابا لذاته؟ فهو بدوافع القلق ينفر من معصيته، ويفزع من مساخطه.

كيف يشهد المرء ربه في مجالي السموات والأرض، ويشهد أسماءه الحسنى فيما يقع من حركة وسكون على امتداد الزمان والمكان؟

إنه لا يتم إيمان، ولا يثمر دين إلا إذا أحسنا الإجابة على هذا السؤال.

ونحن نعرف أن العلوم الشرعية تعاونت على شرح رسالة الإسلام وتوقيف

الناس على حدوده وحقائقه، فأي العلوم أكثرت بهذه الأسئلة وطال نفسه في الحديث عنها؟

إنني لست متصوفًا، وما أحب أن أنتسب إلى فرقة من فرق المسلمين.. بيد أن الإنصاف يدفعني إلى القول بأن هذا الجانب المهم من الثقافة الإسلامية اللازمة لم يلق العناية المستحقة لدى جمهرة الفقهاء والمتكلمين، وأن المتصوفة- برغم شطحاتهم وغلطاتهم- هم الذين أفاضوا في هذا الحديث.

إن فقهاءنا الذين كتبوا المجلدات في غسل الأطراف ما كان يعيبهم أن يتناولوا هذا الجانب وأن يضبطوه بأدلتهم الفقهية، وإن المتكلمين الذين عقدوا الفصول الخطيرة في الشؤون الإلهية المغيبة ما كان يعييهم أن يحببوا الناس في الله ويرفعوهم إلى حضرته بأسلوب علمي محكم.

لقد كان ذلك والله أجدى على الإسلام وأهله، من بحوثهم العقيمة في الذات والصفات!

إن العناوين لا تهمني، وإنما يهمني الموضوع، يهمني أن أرسم الطريق لبناء النفوس على التقوى، وإيناسها في هذه الدنيا بذكر الله، وإلهامها كيف تستعد للقياه ببصيرة مجلوة، ورغبة عميقة، وثغر باسم.

ولنسأل أنفسنا أولًا، ما هي مصادر ثقافتنا الخاصة؟

تعتمد الثقافة الذاتية، أو الثقافة التقليدية للمسلمين على كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ، على هذين الأصلين تقوم علوم الدين، وإليهما كذلك تستند علوم الحياة وفنونها.

وفي عصرنا الأول استطاعت شُعب الثقافة المختلفة أن تقيم حضارة متوازنة الجوانب متكاملة الغايات.

وعندما ننظر إلى عالمنا المعاصر نجد أن شجرة العلوم والفنون تتفرع في أرجائه المختلفة، وتظلل أنحاءه البعيدة في اتساق يستحق التنويه.

هناك العلوم الآلية والرياضة، وهناك الفلسفات والآداب، هناك علوم التربية والأخلاق، وهناك أبحاث القانون وشرائعه الخاصة والعامة، ولكل ميدان أسلوبه في صوغ حقائقه وتقرير أدلته.

ومع الإنصاف وبعد النظر لا يزعم رجل في هذه الميادين أنه أحق بغيره من الحياة، وأنه يغني كل الغناء عندما يزول سواه.

نعم، للقوانين مثلًا مكانها الوطيد في المجتمع، ولكن هل معنى ذلك أن الدنيا تستغني عن الوعظ والتربية؟

وفي ميدان القانون قد يشتجر عالمان على صياغة عبارة، وقد يختلفان في بقاء أو حذف حرف من حروف الجر.. وذلك بديهي في ميدان تضبط فيه الحقوق، وتحرس الدماء، ويفصل في الخصومات.

فهل معنى ذلك أن المجالات القائمة على المعنويات المحضة وملاحظة النفس الإنسانية تفقد قيمتها؟

كلا! إن عالمنا الحاضر تجاور فيه الباحثون عن أسرار الفضاء إلى الباحثين عن المعادن في أغوار الأرض، وتجاور فيه قول الشعر إلى تفتيت الذرة.. والحياة تسع الجهاد الأدبي والعلمي لتلك الفئات كلها! ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ...﴾ (**البقرة**: ١٤٨).

والدراسات العلمية عندنا يجب أن تنسق ذات بينها حتى تستأنف كفاحها النبيل لخدمة الإسلام وإبلاغ رسالته، ولا معنى لخصومة بين فرع وفرع وميدان وميدان.

غير أننا لحظنا آسفين أن الفقهاء والمفتين قديمًا اشتبكوا في منازعات حادة مع المتصوفة والعباد، وأن كلا الفريقين تجهم للآخر، ولم يستفد مما عنده.

وكانت نهاية القطيعة بين الفريقين أن وجدنا فقها لا روح فيه، وفقهاء لهم سمت الدين وليس لهم قلبه الحاني الطيب، وأن وجدنا تصوفًا لا دراية له،

ومتعبدين تحفل سيرتهم بالخرافات والبدع.. وفي العصر الأخير كادت علوم الدين تنقطع علائقها بالكتاب والسنة إلا بقايا من النظر الكليل والتطبيق القليل، والأمر يتطلب عودًا سريعًا إلى هذه الأصول واستمدادًا مباشرًا منها.

قد تقول: إن هذا التصوير غير دقيق، وإنك واهم حين تتهم علماء الكلام والفقه بأنهم قصروا في ميدان التربية وغرس التقوى والأنس بالله في نفوس الناس وأن هذا الفراغ المتروك هو الذي ملأه المتصوفة.. وأرى أن الموضوع يحتاج إلى مزيد إيضاح:

إن علماءنا الأوائل كانوا يجمعون بين سعة العلم وصدق الصلة بالله، والأجيال التي استمعت إليهم كانت تفيد منهم الأمرين معًا.. نضارة القلب المتجه إلى الله، وإشراق الفقه الذي يضيء الطريق إليه..فهم علماء ومربون في وقت واحد..

وإني لأرمق بإجلال وحب رجلًا مثل البخاري.. بدأ كتابه الصحيح بحديث «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...»

وختمه بحديث: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

كان وجه الله هدفه أول سطر خطه، وكان وجه الله أمله، وحمده وتنزيهه شغله آخر سطر خطه، وبين البداية والنهاية أودع الرجل علمه الغزير وحفظه الكثير..

والبخاري معروف بأنه من علماء السنة، بيد أني أظلم الرجل وأشباهه من الأئمة حين أجعلهم علماء متخصصين في فرع واحد من علوم الشريعة على النحو الذي اصطلح عليه الأخلاف.

فالبخاري- في نظري- عالم بالإسلام كله، من تفسير وحديث وفقه وعقيدة وسيرة... إلخ.

والميزة التي غلبت عليه وشهر بها لا تدل إلا على تفوق فقط في هذه الوجهة من الدراسة أو على عناية بها فرضتها الظروف المحيطة.

ومثل ذلك يقال في الخلفاء الأربعة، والأئمة الأربعة، ونظرائهم.

فعمر حاكم وواعظ ومرب وفقيه وليس رجلًا سياسيًا فحسب..

وأبوحنيفة فقيه وسياسي وداعية إلى الله، وليس رجل دراسة فقهية فقط.. والاستقاء المباشر لهؤلاء من الكتاب والسنة جعلهم يتركون فيمن حولهم جملة المعارف والانطباعات التي يتكون منها المجتمع الإسلامي الناضج الوعي، الراشد السلوك.

إن اتصال أرواحهم بالوحي الإلهي، واستضاءة ضمائرهم بصاحب الرسالة، جعلهم على اختلاف وظائفهم العلمية والعملية رهبانًا بالليل وفرسانًا بالنهار، جِنًّا في القدرة على الحياة، ملائكة في قيادها باسم الله.

وهذا الضرب من الناس أسمى من أن يصاغ أو يقاس بالمصطلحات العلمية الحديثة.

وجهد علوم الدين بعد أن تفرعت أنهارًا شتى من الينابيع الأولى كجهد علوم الطب التي تستهدف-مع كثرتها- صيانة البدن الإنساني.. إن هذه العلوم المشتقة من الكتاب والسنة تلتقي جميعًا عند تكوين الإيمان ومطالبه.

ولا بد أن يكون من بين هذه العلوم، علم يقوم على رفع الإنسان إلى مقام الإحسان، علم يعالج العلل العقلية والنفسية التي تحجب المرء عن ربه، وتلصقه بالتراب، أو التي تهتم بأشكال العبادات ولا ترتبط بمعناها وحكمتها.

ما يكون اسم هذا العلم؟ لا يهمني ذلك، لنسمه التصوف، أو لنتخير له ما نستحب من عناوين.. فالأمر سواء. إن شر ما يصيب المتدينين هو تحول الطاعات إلى عادات تؤدى في غيبة العقل وغفلة الشعور.

والمراسم الدينية- والحالة هذه- معطوبة الثمار، وربما بقيت وبقي إلى جوارها طبع لم يهذب، وخلق لم يقوم.

ما الذي يوقظ القلب الغافي، ويعيد إليه حرارة الحياة ونشاطها؟

إن تعهد الناشئة والكبار بما يوجه عواطفهم وآمالهم إلى الله جل جلاله، شيء خطير، ولا بد من إقامته على أسس فنية محترمة.

وفي عصرنا هذا لا بد من الاستعانة بمقررات علم النفس، والاستعانة بما في الآداب الإنسانية الصادقة من تجارب وصور، ولا أحسب أحدًا يماري في حاجة الناس إلى هذا اللون من المعرفة والتربية.

والنزاع الذي نشب قديمًا بين خصوم التصوف وأصدقائه لا يتصل بما نحن فيه، إنه كان نزاعًا على قيمة بعض التصرفات والأقوال التي يجب أن تخضع للمقررات الإسلامية.

وإني أعترف بأني حسنت صلتي بالله كثيرًا على أثر كلمات قرأتها للغزالي وابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم وابن عطاء الله السكندري مع ما بين أولئك جميعًا من تفاوت المشرب واختلاف النظرة..

وقد نستطيع التعرض لما تفاوتت فيه أحكامهم، لكن ما أؤكده هنا هو أن المعنى الذي شرحناه آنفًا قدر مشترك لدى الجميع، وأننا في هذه الأيام بحاجة إلى تجديده وتجليته..

إنه معنى يشع من الكتاب والسنة أولًا وآخرًا ويجعل عالم الإيمان براقًا بالحب، مزدانًا بمعية الله في الغدو والآصال..